﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مِلَّةُ أهلِ الكُفرِ واحدةٌ، وأقوالُهم متوافقةٌ معهودةٌ

لمّا ذكر النَّظمُ الجليلُ أنَّ الذين كفروا بالنَّبيِّ ﷺ آثروا تقليدَ آبائهم: أتبعَهُ في هذه الآية ببيان أنَّ تمسُّكَ أهلِ الكفر والضَّلال بطريقة الآباء تقليدًا لهم هو أمرٌ ليس مختصًّا بقريش، بل هو حاصلٌ من قديم الدَّهر[1]، فكانتْ هذه الآية أعمَّ مِنَ السّابقة، ومُؤكِّدةً لها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرْيَةٖ﴾: (قري) أصْلٌ يدلُّ على جُمَعٍ واجْتِماعٍ، مِن ذلك القَرْيَةُ، سُمِّيَت قَريَةً لاجتماعِ النّاسِ فيها[2]، والقَرْيُ: جَمعُ الماءِ في الحَوْض، والقَريُّ: مُسْتَجْمَعُ ماءٍ كثيرٍ في شِبْهِ وادٍ صَغيرٍ، والجمع: القُرْيانُ[3]، والقَرْيَةُ: اسمٌ للموضعِ الذي يجتمع فيه النّاسُ، وللنّاسِ جميعًا، ويُستعمل في كُلٍّ واحد منهما[4]، فالمقصودُ بها في الآية الكريمة: أهلُ بلدٍ أُرسلَ إليهم رسولٌ.

2) ﴿نَّذِيرٍ﴾: (نذر) أصلٌ يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[5]، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، وهو المُحَذِّرُ مِنْ شَرٍّ يُتَوَقَّعُ، والجَمْعُ: النُّذُرُ[6]، ويقع على كُلِّ شيءٍ فيه إنذارٌ، إنسانًا كان أو غيرَهُ[7]، والإنْذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ - كما أنَّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 627، والمراغي، تفسير المراغي: 25/ 80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (قرى).
(4) الراغب، المفردات: (قري).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(6) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (نذر).
(7) الراغب، المفردات: (نذر).

التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرورٌ - وإعلامٌ بالشَّيء يُحْذَر منه، والمُنذِر هو المبلِّغ والمُعْلِم بهذا الشَّيء، والمُنذِر كذلك: الرَّسولُ أوِ النّبيُّ، يبلِّغ بالأمر العظيم من شأن الآخرة يُخوِّفهم، ويُحذِّرهم منها[1]، وهو المراد في الآية.

3) ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾: (ترف) أصلٌ يدلُّ على امتلاء الشَّيء بالرِّيِّ والرَّخاوة حتَّى ينتبر متميِّزًا عمّا حوله كالتُّرْفَةِ (وهي الهنَةُ النّاتئة في وسَط الشَفَة العليا خِلْقةً)، يُقالُ: رَجُلٌ مُتْرَفٌ مُنَعَّمٌ، وتَرَّفَهُ أَهْلُهُ، إذا نَعَّموهُ بالطَّعام الطَّيِّب والشَّيْءِ يُخَصُّ به[2]، والمُتْرَفُ: الموسَّعُ عليه عَيشُه، القليلُ فيه همَّةً، وأَتْرَفَه اللّهُ[3]، والتَّرَفُ: التَّنَعُّمُ، والتُّرْفَةُ النَّعْمَةُ، وصبيٌّ مُتْرَفٌ، إذا كانَ مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلًا، والمُتْرَفُ: الَّذي قَدْ أَبْطَرَتْه النِّعمَةُ وسَعةُ العيْشِ، وأَتْرَفَتْه النَّعْمةُ؛ أي: أَطْغَتْه[4]، والمراد به في الآية الكريمة: المتنعِّمون[5].

4) ﴿أُمَّةٍ﴾: (أمم) أصلٌ يدلُّ على الأصْل والمَرْجِع والجَماعَة والدِّين[6]، وأصلُ هذا الباب كلِّه من القَصْد؛ يقال: أممتُ إليه إذا قَصدته؛ فمعنى الأمَّة في الدِّين: أنَّ مَقصدهم مقصدٌ واحدٌ[7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92] أي: دِينٌ واحِدٌ، وكلُّ مَن كان على دينٍ واحدٍ مخالفًا لسائر الأديان فهو أمَّةٌ على حدةٍ، وكان إبراهيم عليه السلام أُمَّةً[8]، والأُمَّة: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ؛ سواء كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا، أو اختيارًا، وجمعُها: أُمَمٌ، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، أي: صنفًا واحدًا، وعلى طريقةٍ واحدةٍ في الضَّلال والكفر، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، أي: على دينٍ مجتمع[9]، وطريقةٍ معهودة[10].

5) ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾: (أثر) أصلٌ يدلُّ على رَسْمِ الشَّيءِ الباقي[11]، والأثر: بَقِيَّةُ ما تَرى مِن كُلِّ

(1) السَّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (نذر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ترف).
(3) الخليل، العين: (ترف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ترف).
(5) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 98.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمم).
(8) الخليل، العين: (أمم).
(9) الراغب، المفردات: (أم).
(10) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 298.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).

شيءٍ، وذهبتُ في إثْرِ فُلانٍ؛ أي: اسْتَقْفَيتُهُ[1]، وأثَرَ فلانٌ فِعْلَ أبيه: اقْتَفاه[2]، وأثَرُ الشَّيء: حصولُ ما يدلُّ على وجودِه، والجمع: الآثار، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27]، ومِن هذا يُقال للطريق المُستدَلِّ به على مَن تقدَّم: آثارٌ، نحو قوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ [الصافات: 70][3]، والمراد به في الآية الكريمة: الاقتداءُ واتِّباعُ السّابقين[4].

6) ﴿مُّقْتَدُونَ﴾: (قدو) أصلٌ يدلُّ على اقتباسٍ بالشَّيء واهتداء[5]، والاقتداء: الاتِّباعُ، ومنه الاقتداءُ بإمام الصلاة؛ وذلك أن يتَّبعَ أفعالَهُ، فلا يتقدَّمَ عليه، ولا يتأخَّر عنه، ولا يزيد عليه، ولا ينقص عنه[6]، والقُدوةُ اسمُ مَن اقْتُدِيَ به؛ إذا فعلَ مثلَ فعلِه تأسِّيًا[7]، والمراد بقوله ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ في الآية الكريمة: مُتَّبِعون[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقليدُ الكافرين لآبائِهم منهجٌ قديمٌ عارَضوا به كُلَّ المرسلين

لا تحزن أيُّها الرَّسولُ الكريمُ لِما تراهُ مِن إعراضِ المشركينَ عن دعوتك؛ فإنَّ شأنهم كشأنِ سابقيهم في الضَّلال والكفر؛ فإنَّنا ما أرسلنا مِن قبلكَ مِن رسولٍ في قريةٍ مِنَ القرى أو في قومٍ مِنَ الأقوام إلّا قال المُنعَّمون منهم، والذين أبْطرَهُم التَّرَفُ، لِمن جاءهم بالحقِّ: إنّا وجدنا آباءَنا على دينٍ وطريقةٍ تُؤَمُّ وتُقْصَد، وإنّا على آثارِهم ونَهْجِهم سائرون، مُقتَدون بهِم في عبادتهِم وأفعالِهم[9].

(1) الخليل، العين: (أثر).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (أثر).
(3) الراغب، المفردات: (أثر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أثر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدو).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قدو).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (قدو).
(8) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 221.
(9) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 13/ 70.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

إعراضُ المشركين عن أهل الدَّعوة مسلكٌ معهودٌ

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ بالواو في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ وهي صالحةٌ أن تكون للاعتراض، فتكون الجملةُ اعتراضيَّةً، سيقت تسليةً للنَّبيِّ ﷺ على ما لقِيَه مِن قومه، مبيِّنَةً أنَّ الرُّسلَ مِن قبله لَقوا مثلَ ما لقيَ؛ والمقصودُ أنَّ هذا دأبُ الضّالِّينَ مِنَ السّابقين واللّاحقين؛ والواوُ الاعتراضيَّة تعطفُ الجملةَ المعترِضةَ على الجملةِ التي قبلَها عطفًا لفظيًّا[1]، كما أنَّ الواو صالِحةٌ أن تكونَ للعطف[2]، فعَطَفَت مَقولةَ الضّالِّين في الزَّمن الماضي على مقولة المشركين مِمَّن عاصرَ نزولَ القرآن.

معنى الكاف ودلالتُها في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الكُفرُ ملَّةٌ واحدةٌ، يَصدرُ عن الهوى والتَّقليد

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (الكاف) الدّالَّة على التَّشبيه في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ أي: كما قال الذين مِن قبلهم: (إنّا وجدنا آباءنا على أمّة)، كذلك قال كفّارُ مكَّة؛ فتشابهت قلوبُهم وأقوالُهم؛ ولوجودِ هذا التَّشابه شُبِّه ما قاله السّابقون بقولِ أهلِ مكَّةَ وكفّارِها[3]، فدلَّتِ الكافُ على تشبيه الحاضرين مِن أهل الضَّلال بمَن سلفَ منهُم في خُلوِّهم مِنَ الحُجَّة وعَجْزِهم عن مُقارعة الحقِّ، ونزوعِهم لإعلان تشبُّثهم بحبل التَّقليد[4]، فشُبِّه الكُفّار مِن قُريشٍ بالكافرين مِنَ الأمم السّابقة في الرُّكون إلى أسباب التَّرف الظّاهرة، والبُعدِ عن التَّفكُّر، والارتماءِ في راحة التَّقليد.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 188.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 77.

(3) محمود موسى حمدان، أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، ص: 272.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44.

عِلَّةُ تقديمِ شبْه الجملة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

العنايةُ بالمشابَهة عنايةٌ برسول الله وتسليةٌ لهُ

كافُ التَّشبيه في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾؛ وإنَّما قُدِّم على متعلَّقِه وحقُّه التَّأخيرُ للاهتمام بهذه المشابَهة، وللتَّشويق لما يَرِدُ بعدَ اسم الإشارة[1]، كما أنَّ الإرسالَ متقدِّمٌ على مقالة الكافرين، فقُدِّمَ ذِكْرُه اعتبارًا بسَبْقِه زمانًا.

المَوقِعُ البيانيُّ للجملة المَنفيَّة ﴿مَآ أَرْسَلْنَا﴾:

عمومُ البلوى يمحو العنَتَ عنِ الدّاعي

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ جُملةَ ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها في حُكْمِ البيانِ والتَّفصيلِ لاسم الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي يعود إلى حال الكافرين مِن قَبلِهم، فقد سِيقَتْ الجملةُ لبيان أنَّ مسلكَ المشركينَ قائمٌ على التَّقليد وأنَّهم راسخونَ فيه، فهي ضلالةٌ قديمةٌ منذ أسلافهم، والمرادُ منَ الجملةِ المستأنفة تسليةُ النَّبيِّ ﷺ[2].

معنى ﴿مَآ﴾، ودلالةُ التَّعبير بها:

تسليةُ النَّبيِّ بأقرب الأُمَم إليه زمانًا

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ النَّفيَ بـ﴿مَآ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ وذلك لأنَّ (ما) تنفي الفعلَ الماضيَ القريبَ مِنَ الحال[3]، والمقصودُ أنَّ هناكَ زمانًا قليلًا بين حصول الفعل وما يُخبَرُ به عنه، نحو: (ما حضرَ الأستاذ)؛ فهذا التَّعبيرُ جوابٌ عنِ الجملة المثبتة: (لقد حضرَ الأستاذ)[4]، فردُّ الكافرين بالرُّكون إلى تقليدِ آبائهم والاكتفاءِ به لم يَبعُد عن سَماعهم دعوةَ رسولهم؛ فلمّا كان ردُّهم قريبًا مِن زمانِ دعوة الرَّسول، كان الرَّدُّ عليهم بما هو في زمانٍ قريبٍ مِن زمانِ دعوة الرَّسول وردِّهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 188.
(2) القنوجي، فتح البيان: 12/ 339.
(3) الزمخشري، المفصَّل، ص: 405.
(4) عز الدين علي مختار، أسلوب النفي أدواته ودلالاته: 1/ 275.

دلالةُ التَّعبير بـ(الإرسال) مادَّةً، وصيغةً:

التَّصريحُ بتحميل الرِّسالة، وتشريفِ النَّبيِّ ﷺ بها

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالإرسال في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ للدَّلالة على تحميل المبعوث رسالةً يُبلِّغُها؛ فالرَّسولُ هو مَن يحملُ القولَ والرِّسالة[1]، ففيه إثباتُ رسالته ﷺ بطريقِ ذِكْرِ الرُّسُل السّابقين وحالِ أقوامِهم معهم؛ في مقابلةِ رفضِ قومِه إيّاها، واقتدائهم بآبائهم في الكُفر؛ وهذا مِن شأنِه أنْ يُسلِّيَه ويُسرِّيَ عنه، وجاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الفعلِ الماضي للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإرسال.

علَّةُ التَّعبير بصيغة الجمع في: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

إرسالُ الرُّسُل إلى الخَلْقِ نعمةٌ جليلةٌ، وشأنٌ عظيمٌ

أسنَدَ النَّظمُ الجليلُ فِعلَ الإرسال إلى ضمير التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ لأنَّ الإرسالَ ليس إلّا لله ﷻ، أي: أرسلناهُ بما لنا منَ العظمة[2]، وعِلَّةُ التَّعظيم أنَّ إرسالَ الرِّسالات للنّاس وتحميلَها للمُرسَلين شأنٌ عظيمُ القَدرِ، جليلُ الأثر؛ فهذا أبلغُ في إثبات رسالة نبيِّنا وتسليته.

عِلَّةُ تقديم شِبهِ الجملة:

تسليةُ خاتم المرسلين، بذِكر النُّذُر السّابقين

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شِبهَ الجُملَةِ مِن الجارِّ والمجرور: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ على المفعول به المجرورِ لفظًا المنصوبِ مَحَلًّا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ فلم يقل: (ما أرسلنا نذيرًا من قبلك) اهتمامًا بالتَّسلية، وتخليصًا لها مِن أنْ يُتوهَّمَ أنَّه يكونُ معه في زمانِه أو بعدَهُ نذيرٌ، وإفهامًا لأنَّ المُجدِّد لشريعته إنَّما يكونُ مُغيثًا لأمَّته، وبشيرًا لا نذيرًا؛ لثباتِهم على الدِّين بتصديقهم جميع النَّبيِّين[3].

(1) الراغب، المفردات: (رسل).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 411.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 411.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالةُ ذِكْرِها:

تكذيبُ الأمم للرّسل سنّةٌ معهودةٌ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾؛ للدَّلالة على الأزمنة القريبة من زمان إرساله ﷺ؛ فإنَّ الإرسالَ لم يعُمَّ جميعَ الأزمنة التي سبقَت إرسالَ النَّبيِّ ﷺ، وذلك لأنَّ التَّسلية بالأقرب أعظَمُ نفعًا[1]، ودلَّ ذلك على أنَّ تكذيبَ قريشٍ لم يكُن بِدعًا في الأمم؛ فَهُم نَهَجوا ما دَأَبَ عليه مَن كان قبلَهُم وتقدَّمَهُم مِن الأمم، وأنَّهم قدَّموا الحُجَجَ ذاتها والمقولاتِ عَينَها[2]، وهذا هو مَوطِنُ التَّسلية.

عِلَّةُ التَّعبير بـ﴿قَرْيَةٍ﴾:

إذا كان أهلُ الحِكْمةِ لا يُنصِفونَ فكيفَ يكونُ غيرُهم؟!

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالقَرية في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ وذلك لأنَّ "أهلَ القُرى أقربُ إلى العقلِ وأولَى بالحكمةِ والحكم"[3]، ومع ذلك قال مُترَفوها ما لا يقولهُ عاقِلٌ منصفٌ؛ فيحصلُ بهذا التَّعبير أكبرُ تسليةٍ له ﷺ، ولأنَّها موطِنُ أكثر النّاس وموئِلُهم فيها، وما حولَها تَبَعٌ لها، فيكونُ الإرسالُ في القُرى أوقعَ فائِدَةً للنّاس.

معنى ﴿مِّن﴾، ودلالةُ التَّعبير بها:

كلُّ الرُّسل تلقَّوا كلمةَ الكُفر مِن أقوامِهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ الدّاخلِ على الإنذار في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ وهي هنا حرفٌ مزيدٌ[4]، وتقديرُ الكلام: (وما أرسلنا نذيرًا من قبلك إلّا قيل له ذلك)، وقد جيء بحرفِ الجرِّ للدَّلالة على استغراق النَّفي[5]، فيكونُ المعنى أنَّ كلَّ نذيرٍ أرسَلَه الله تعالى قد أُجيبَ مِن قومِهِ بالكُفرِ والإعراض؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 411.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 80.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 411.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 77.
(5) الخطيب، السراج المنير: 3/ 559.

وأسلوبُ التَّعميم بذِكْرِ ﴿مِّن﴾ - إذْ مَدخولُها نكرةٌ في سياقِ النَّفي - أدَلُّ على الغضَبِ الإلهيِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإنذار مادَّةً وتنكيرًا:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإنذار في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ لدلالتهِ على الإخبار المَشوبِ بالتَّخويف؛ مناسبةً لسياقِ رفضِ الرَّسول والرِّسالة، والاقتداءِ بالآباءِ في الكُفر، والمرادُ به الأنبياءُ والرُّسُل[1]، وإنَّما ذكَرَ النَّذيرَ دونَ الرَّسول للدَّلالة على عِلَّة كراهتِهم ونفورِهم مِنَ الدَّعوة، فهو دعاهُم إلى ما فيه مخالفةُ أهوائِهم وعاداتِهم، بتخويفهم مِن عواقب شِرْكِهم وكُفرِهم[2]، وجاءَ بصيغةِ التَّنكير للدَّلالة على العُموم والشُّمول؛ فكلُّ نذيرٍ قد قيلَتْ لهُ تلكَ المَقالةُ؛ لأنَّها وقعَت في سياقِ النَّفي ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ فهي تعُمُّ، ولا قرينةَ تصرِفُها عن ذلك.

مِن مقاصدِ الإرسال تخويفُ النّاسِ مِن مغبَّة شِرْكِهم

موقِعُ جُملةِ الاستثناء:

وقَعَ قولُه تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ في محلِّ الحال؛ لأنَّ الاستثناءَ هنا مِن أحوالٍ مقدَّرة، أي: (ما أرسَلْنا إلى أهلِ قريةٍ في حالٍ مِن أحوالهم إلّا في حال قولٍ قالَهُ مُترَفوها: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾[3]، ونظمُهُ حالًا أبلغُ في الاستدلالِ به على تمَسُّكِ المشركينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وجِنْسٍ بدينِ آبائِهم.

لم يكن حالُ المشركين إلّا الكُفرَ بالمُرسَلين

عِلَّةُ التَّعبير بالتَّرَف مادَّةً، وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ التَّرَفِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ وهو دالٌّ على سعة النِّعمة وبَسطِها عليهم[4]، وإنَّما خصَّ المترَفين بالذِّكر دون سواهم، إشارةً إلى أنَّ

التَّرَفُ مَدعاةٌ للكسل، ومُسبِّبٌ للتَّقليدِ والبغي

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 269.
(2) الخطيب، السراج المنير: 3/ 559.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 188.
(4) الراغب، المفردات: (ترف).

سعة النِّعمة والتَّرفَ أورَثَهُم حُبَّ البطالة، فصَرَفَهم ذلك عن النَّظر إلى التَّقليد[1]، وفي ذلك يقول الفخرُ الرّازيُّ: "بيَّنَ أنَّ الدّاعي إلى القول بالتَّقليد والحاملَ عليه إنَّما هو حُبُّ التَّنعُّم في طيِّباتِ الدُّنيا، وحُبُّ الكسل والبطالة، وبُغضُ تَحَمُّلِ مشاقِّ النَّظر والاستدلال؛ لقوله: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ وإذا عرفتَ هذا علمتَ أنَّ رأسَ جميعِ الآفاتِ حُبُّ الدُّنيا واللَّذّاتِ الجسمانيَّة، ورأسَ جميع الخيراتِ هو حُبُّ اللّه والدّارِ الآخرة"[2]، فالتَّرف ليس مذمومًا لذاته، بل هو إشارةٌ إلى أنَّ التَّرف هو العلَّة التي منعَتهُم عن طلب الحقِّ[3]، وهذا لإسرافِهم في الكُفر، وصيغةُ اسم المفعول مُشعِرَةٌ بأنَّهم لم ينالوا ذلك التَّرفَ بجُهدٍ مَحضٍ، بل هو فضلٌ مِنَ اللّه تعالى، كما قال جلَّ شأنُه: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: 33].

سِرُّ إضافةِ (المترَفين) إلى (القرية):

النّاس تَبَعٌ لكُبرائِهم

أضافَ النَّظمُ الجليلُ المترَفين إلى ضمير القريةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ النّاس تَبَعٌ لكُبرائهم، وأنَّ أمْرَهُم مُرتَهِنٌ بهم، وأنَّ أمرَ النّاس قائمٌ على التَّقليد لهم؛ فلهُمُ الكلمةُ في مجتمعاتهِم، وهُم أهمُّ مَن يرفضُ الرُّسُلَ ورسالاتِهم؛ لشديدِ حرصِهم على متاعِ الدُّنيا.

سِرُّ توكيدِ الجملة:

الكافرُ مُصِرٌّ على اتِّباعِ آبائِهِ لا ينفكُّ عن دينِهم

أكَّدَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ للدَّلالة على إصرارِهم وتمسُّكِهم بدينِهم، وتأكيدًا لتمكُّن طريقةِ آبائِهم منهُم، وهو تمهيدٌ للتَّصريحِ بالاقتداءِ بتلكَ الطَّريقة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 89.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 628.
(3) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 98.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ (وجدَ) مادَّةً، وصيغةً:

الاعتذارُ بوُجدانِ الآباءِ على الشِّركِ تعبيرٌ عن صَلاحِهِ ورِضاهُم به

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بِفعلِ الوجود في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، وهو هنا فعلٌ تامٌّ يدُلُّ على العثور على الشَّيء[1]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: 23 - 24]، فهو وجودٌ بالبصر مشاهدةً، وبالبصيرةِ إدراكًا[2]، فهو وهو تعبيرٌ عَن إدراكِهم آباءَهم على طريقَةٍ معهودةٍ مألوفَةٍ، فَنَفَوا داعِيَ الانصراف عنها، إشارةً إلى صلاحِها وقبولِهم بها.

سِرُّ التَّعبيرِ بالآباء:

قبولُ الآباءِ الكُفرَ حُجَّةٌ عند الأبناء

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظِ الآباءِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ دون القوم، وذلك لبيان تزكيتِهم لدِينهم؛ فإنَّ الآباءَ أكثرُ معرفَةً بالأمور مِن الأبناء عُرفًا، أي: (وَهُم أعرَفُ منّا بالأمور)[3]، كما يُشعِرُ باستمراريَّةِ التَّقليد، وأنَّ دينهم قائِمٌ على الوراثة والتَّناقل بين الأجيال.

دلالةُ إضافةِ الآباء إلى ضمير المتكلِّمين:

قوَّةُ الثِّقة بآبائهم، وشِدَّةُ تقليدِهم إيّاهُم

أضاف النَّظمُ الجليلُ الآباءَ إلى ضمير المتكلِّمين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ للدَّلالة على ثقتهم فيما ورِثوهُ؛ فإنَّ الابنَ أشَدُّ ما يثِقُ بأبيهِ وأسلافه، وفيها أيضًا إشعارٌ بكمال اعتزازِهم وافتخارِهم بهم؛ مِمّا يُنبئُ بعظيمِ تمسُّكهم بدينهِم؛ ولهذا كانوا مُسرِفينَ في الكُفر.

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾ ودلالةُ التَّعبير به:

الحِرصُ على اتِّباعِ الأسلاف بلا دليلٍ تَركَةٌ يَتناقلُها أهلُ الضَّلال

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ - الدّالِّ في الأصلِ على الاستعلاء - في قولهِ جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ للدَّلالة

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وجد).
(2) الراغب، المفردات: (وجد).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.

على شدَّة المُلابَسة والتَّمكُّن[1]، فالاستعلاءُ فيهِ مجازيٌّ؛ فكان آباؤهُم شديدي التَّمسُّكِ بما ورِثوهُ عن سلَفِهم؛ تعبيرًا عن شديدِ حِرصِهم على تقليدهم وإصرارهِم على ذلك، حتَّى كأنَّهُم قد ركبوا تلكَ المِلَّة والدِّين.

علَّةُ التَّعبير بـ﴿أُمَّةٍ﴾ مادَّةً، وتنكيرًا:

الـدِّيـنُ المـوروثُ عن الآباءِ جَليلُ الـقَـدر في ظَـنِّ أتباعِهِ

عبَّر النَّظمُ الجَليلُ بلفظ الأُمَّة في قولهِ جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ وهي تُطلَقُ لغةً على كُلِّ جماعةٍ يجمَعُهُم أمرٌ ما كالدِّين؛ أي أنَّهم كانوا على دينٍ مجتمِع[2]، وعبَّر بالأمَّة دون الدِّين للدَّلالة على أنَّ دينَهُم كان يجمعُ النَّاس، وأنَّه يستحقُّ أنْ يُقصَد ويُؤتَمَّ به، وجاء اللَّفظُ نكرةً تعظيمًا لها على زعمهِم؛ أي: هي طريقةٌ عظيمةٌ[3].

دلالةُ العطف بالواو:

اتِّـبـاعُ الأسـلافِ ديـنٌ يفتقرُ إلى الحُجَّة

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ على جملة ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ بالواو الدّالَّةِ على إشراكِ الثّاني للأوَّل في الحُكم؛ للتَّنبيهِ على أنَّه مقولٌ ثانٍ لهم، جيءَ به لبيان أنَّهم لا يملكونَ بُرهانًا على صحَّة دينهِم، وأنَّهم إنَّما يعبدونَ الأصنامَ تقليدًا لآبائهِم، وبيانِ أنَّهم يقولون ذلك عند المُحاجَّة، حيث لا دليلَ ولا حُجَّة لديهم غير ذلك[4]، فالجُملتان كلاهُما قولٌ يقولونهُ، فتتابَعت أقوالُهم تلك؛ للإفصاحِ عن تأكيدِ اتِّباعِ أسلافهم.

سِرُّ توكيدِ الخَبَر:

أكَّدَ النَّظمُ الجليلُ الخَبَرَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾؛ وذلك لقطع رجاء الدُّعاة والمخالفين مِن تَوَقُّعِ صَرْفِهِم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 187.
(2) الراغب، المفردات: (أمّ).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 187، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 77.

عنِ التَّقليد[1]؛ وللتَّنبيه على أهميَّة الاقتداء بآثارهم، فإنَّ مِثْلَها يُقتدَى به.

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾ ودلالةُ التّعبير به:

التَّمسُّك الشَّديد بتقليد طريقة الآباء

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ الدّالِّ على الاستعلاء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على تمكُّنهم مِن اتِّباع آثار الآباء، وشدَّةِ تمسُّكهم بها، وتأكيدًا لعدم مفارقتها؛ فكأنَّهم "راكبونَ سنَنَ طريقِهم، لازمونَ له"[2]، وفيه أنَّهم يسيرون على آثارهم سَيرًا مطابقًا لها لا يكادُ ينحرفُ عنها.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(الآثار)، وإضافتِها:

تقفِّي تعاليمِ الآباء، وتتبُّعُ الأثر مُعَبِّرٌ عن شدَّة التَّمسُّك بدينهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالآثار في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾؛ دون أنْ يقول مثلًا: (وإنّا بهم مقتدون)؛ لِما في الآثار من دلالةٍ على شدَّة التَّمسُّك، فهي تدلُّ على الطَّريق المستدَلِّ به على مَن سبق وتقدَّم[3]، وهذا يُشير إلى شدَّة التَّقليد، فهم يتَّبعون الآثار اقتفاءَ الخطوةِ بالخطوة، دون أنْ يَحيدوا عنها، مع بيان الجُهد في ذلك؛ والمعنى أنَّهم يؤكِّدون رسوخَهم في اتِّباع دينِ أسلافهم، وأضافوها إلى ضمير الآباء تفخيمًا لها بنسبَتها إلى مَن يلزمُ توقيرُه؛ وهم الآباءُ والسَّلف.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الاقتداء:

آثارُ الآباءِ أساسُ الاقتداءِ بهم وعِلَّةٌ له

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة على الخبر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ للدَّلالة على قَصر اتِّباعهم واقتدائهم على آثار الآباء، لا على غيرها[4]، ولهذا عُلِّق الجارُّ والمجرور بـ﴿مُّقْتَدُونَ﴾، أمّا إذا جُعِل الجارُّ والمجرور خبرًا أوَّلَ، و: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ خبرًا ثانيًا،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.
(3) الراغب، المفردات: (أثر).
(4) الخطيب، السراج المنير: 3/ 559.

فهو مِن تعدُّد الأخبار[1]، فيكون تقديمُ الخبر الأوَّل للاهتمام بالآثار التي هي سببُ اقتدائهم، وتأخيرُ ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ لكونه محقِّقًا لوحدة الفاصلة[2]، فكأنَّ المُقدَّمَ هو السَّببُ في المُؤخَّر، وعلَّةٌ له في المعنى؛ والسِّياقُ لبيانِ حُجَّتهم في الاهتداء بالآباءِ، ورفضِ الرِّسالة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاقتداء مادَّةً، وصيغةً:

متابعةُ منهاج الآبـاء صِفَـةٌ راسـخـةٌ في الضّالّين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالاقتداء اسمًا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم يتَّبعون سنَّة الآباء، وأنَّهم ملازمونَ لطريقهم[3]، وأنَّها صِفَةٌ ثابتَةٌ فيهم لا ينفكّون عنها، وعبَّر بالاقتداء دون الاهتداء كما في الآية السّابقة: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزخرف: 22] لأنَّ أقوالَهم الضّالَّة كثيرةٌ مختلفة، وهي كلُّها تعبيرٌ عن كونهم إنَّما يقتدون بآبائهم، فحكايةُ تلك الأقوال من قبيل حكايةِ القولِ بالمعنى، وهي طريقةٌ مُتَّبَعةٌ في كلام العرب[4]، أو أنَّه من باب حكايةِ ما قالوه؛ لأنَّ الذين كانوا يُخاصمون النَّبيَّ ﷺ قد زعَموا الاهتداءَ، وأنَّ الأُمَمَ قبلَهُم خاصموا رسولَهم بأنَّهم يقتدون بآبائهم ولم يزعموا الاهتداء[5]، فحكى النَّظمُ الجليلُ ذلك مِن باب الإخبار بالواقع.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإرسال والبعث:

الإرسالُ يتضمَّنُ رسـالـةً؛ فهو بَعْثٌ مخصوصٌ

البعثُ أعمُّ مِنَ الإرسال؛ لأنَّه "يجوز أنْ يُبعث الرَّجلُ إلى الآخَر لحاجةٍ تخصُّه دونك ودون المبعوث إليه، كالصَّبيِّ تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثْتُه، ولا تقول: أرسَلتُه؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلّا برسالةٍ وما

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 77، والدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 585.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 306.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 189.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 88.

يجري مجراها"[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾: آثر القرآنُ التّعبير بالإرسال؛ لأنَّه يتضمَّن رسالةً؛ فإنَّ الله تعالى قد حمَّل الرُّسلَ رسالةً يُؤَدّونها، والرِّسالةُ على هذا تكون متضمِّنةً للبعث[2].

(1) العسكري، الفروق، ص: 289.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 295، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/ 82.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"